

بسم الله الرحمن الرحيم

الحج في الإسلام: رحلة التجرد الكامل وأنس اللقاء

أيها الأخوة الكرام، الحج أحد أركان الإسلام الخمسة، وهو عبادة مالية بدنية شعائرية في آن معاً، وهو تلك الرحلة الفريدة في عالم الأسفار، ينتقل فيها المسلم ببدنه وقلبه إلى البلد الأمين، الذي أقسم الله به في القرآن الكريم، ليقف في عرفات الله، وليطوف ببيته الحرام، الذي جعله الإسلام رمزاً لتوحيد الله، ووحدة المسلمين، ففرض على المسلم أن يستقبله كل يوم خمس مرات في صلواته، قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، ثم فرض عليه أن يتوجه إليه بشخصه، إلى بيت الله الحرام، ويطوف به بنفسه، في العمر مرة واحدة، إن هذا البيت العتيق هو أول بيت وضع للناس، هو أول بيت أقيم في الأرض لعبادة الله، مجدّد بنائه الخليل إبراهيم، وولده الذبيح إسماعيل، وهما الرسولان الكريمان اللذان جعل الله من نريتهما هذه الأمة المسلمة، واستجاب دعوتهما الخاصة، وهما يُشيدان هذا البناء العتيق، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرَنَا مَنَاسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. قال النبي عليه الصلاة والسلام: ((أنا دعوة إبراهيم وبُشرى عيسى بن مريم)).

الحج أيها الأخوة ، برهان عملي يقدمه المؤمن لربه ولنفسه، على أن تلبية دعوة الله بدافع محبته، وابتغاء رضوانه، أفضل عنده من ماله، وأهله، وولده، وعمله، ودياره، ومما تتميز به هذه العبادة أنها تحتاج إلى تفرغ تام، هذه العبادة تحتاج إلى تفرغ تام، فلا تؤدي إلا في بيت الله الحرام، إذ لا بدّ من مغادرة الأوطان، وترك الأهل والخلان، وتحمل مشاق السفر، وإنفاق المال في سبيل رضوانه، وإذا صحّ أن ثمن هذه العبادة باهظ التكاليف فإنه يصحّ أيضاً أن ثمره هذه العبادة باهرة النتائج، حيث قال المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم: ((من حجّ فلم يرفُثْ ولم يفسُقْ رَجَعَ من ذنوبه كيوم ولدته أمه)). وقال أيضاً: ((الحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَقَدْ أُعْطُوا، وَإِنْ دَعَوْا أُجِيبُوا، وَإِنْ أَنْفَقُوا أُخْلِفَ عَلَيْهِمْ))، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب)).

يذهب المسلم إلى بيت الله الحرام، ويُخلف في بلده هموم المعاش والرزق، هموم العمل والكسب، هموم الزوجة والولد، وهموم الحاضر والمستقبل، وبعد أن يُحرم من الميقات يبتعد عن الدنيا كلياً، ويتجرّد إلى الله عز وجل ويقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

أيها الأخوة، هذه التلبية كأنها استجابة لنداء ودعوة يقعان في قلبه، أن يا عبدي خَلِّ نفسك وتعال إليّ، تعال يا عبدي، لأريحك من هموم كالجبال، تجثم على صدرك، تعال يا عبدي لأطهرك من شهوات تُنْعَص حياتك. تعال يا عبدي، وذق طعم محبتي، تعال يا عبدي، وذق حلاوة مناجاتي، لبيك اللهم لبيك، يقع في قلبه أن تعال يا عبدي، يجيبه لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، تعال يا عبدي لأضيء جوانحك بنوري الذي أشرقت به الظلمات، تعال لأعمر قلبك بسكينة عزت على أهل الأرض والسموات، تعال لأملأ نفسك غنى ورضا شقيت بفقدما نفوس كثيرات، تعال يا عبدي لأخرجك من وحول الشهوات إلى جنات القربات، تعال يا عبدي لأنقذك من وحشة البعد إلى أنس القرب، تعال يا عبدي لأخلصك من رُعب الشرك وذل النفاق إلى طمأنينة التوحيد وعز الطاعة. إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عُمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحقاً على المزور أن يكرم الزائر. فكيف يكون إكرامي لك إذا قطعت المسافات، وتجشمت المشقات، وتحملت النفقات، وزرتني في بيتي الحرام، ووقفت بعرفة تدعوني، وتسترضيني، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. ((إِذَا أَصْحَحْتُ لِعَبْدِي جِسْمَهُ، وَوَسَّعْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَعِيشَةِ، فَأَتَتْ عَلَيْهِ حَمْسَةُ أَعْوَامٍ لَمْ يَفِدْ إِلَيَّ لَمَحْرُومًا)).

تعال يا عبدي، وطُف حول الكعبة طواف المحب حول محبوبه، واسع بين الصفا والمروة سعي المشتاق لمطلوبه، تعال يا عبدي، وقبّل الحجر الأسود، يميني في الأرض، وانزف الدمع على ما فات من عمر ضيعته في غير ما خلقت له، وعاهدني على ترك المعاصي والمخالفات، وعلى الإقبال على الطاعات والقربات، وكن لي كما أريد لأكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تُسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد، خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

تعال يا عبدي إلى عرفات، يوم عرفة هو يوم اللقاء الأكبر، تعال لتعرض لنفحة من نفحاتي تطهر قلبك من كل درن وشهوة، وتُصفي نفسك من كل شائبة وهمّ، هذه النفحات تملأ قلبك سعادة وطمأنينة، وتشيع في نفسك سعادة لو وُرّعت على أهل بلد لكفتهم، عندئذ لا تندم إلا على ساعة أمضيتها في القيل والقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.

أيها الأخوة الأكارم، وبعد أن يذوق المؤمن في عرفات، من خلال دعائه، وإقباله، واتصاله، من خلال روعة اللقاء، وحلاوة المناجاة، يغمس في لذة هي لذة القرب، عندئذ تصغر الدنيا في عينيه، وتنتقل من قلبه إلى يديه، ويصبح أكبر همه الآخرة فيسعى إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وقد يُكشف للحاج في عرفات أن كل شيء ساقه الله له مما يكرهه هو محض عدل، ومحض فضل، ومحض رحمة.

وبعد أن يفيض الحاجُّ من عرفات، وقد حصلت له المعرفة، واستنار قلبه، وصحت رؤيته، يرى أن السعادة كلها في طاعة الله، وأن الشقاء كله في معصيته، عندئذ يرى عداوة الشيطان، وكيف أنه يعدُّ أولياءه بالفقر إذا أنفقوا، ويخوفهم مما سوى الله، إذا أنابوا وتابوا، ويعدهم، ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غوراً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، عندئذ يُعبِّر الحاج عن عداوته للشيطان تعبيراً رمزياً برمي الجمار، ليكون الرمي تعبيراً مادياً، وعهداً موثقاً في عداوة الشيطان، ورفضاً لوساوسه وخطراته.

وحينما يتجه الحاج لسوق الهدى، ونحر الأضاحي، وكأن الهدى هدية إلى الله وتعبير عن شكر الله على نعمة الهدى، التي هي أئمن نعمة على الإطلاق، وكان ذبح الأضحية ذبح لكل شهوة، ورغبة لا تُرضي الله، وتضحية بكل غالٍ ورخيص، ونفس ونفيس، في سبيل مرضاة رب العالمين، قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّفْسُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثم يكون طواف الإفاضة تثبيتاً لهذه الحقائق، وتلك المشاعر، ثم يطوف طواف الوداع لينطلق منه إلى بلده إنساناً آخر، استنار قلبه بحقائق الإيمان، وأشرقت نفسه بأنوار القرب، وعقد العزم على تحقيق ما عاهد الله عليه، وإذا صحَّ أن الحج رحلة إلى الله، فإنه يصحُّ أيضاً أنه الرحلة قبل الأخيرة، لتجعل الرحلة الأخيرة مفضية إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

وبعد أن ينتهي الحجاج من مناسك الحج يتجهون إلى المدينة المنورة، التي هي من أحب بلاد الله إلى الله، يتجهون إليها لزيارة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم، فقد رُوي: ((من زار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي)). لعل سرَّ السعادة التي تغمر قلب المسلم حينما يزور مقام النبي صلى الله عليه وسلم أنه ما إن يرى معالم المدينة حتى يزداد خفقان قلبه، وما إن يبصر الروضة الشريفة حتى يجهش بالبكاء، وعندئذ تُصبح نفس الزائر صافية من كل كدر، نقية من كل شائبة، سليمة من كل عيب، منتشية بحبها له صلى الله عليه وسلم وفُربها منه، وهذه حقيقة الشفاعة التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ((من جاءني زائراً، لم تنزعه حاجة إلا زيارتي كان حقاً على الله أن أكون له شافعاً يوم القيامة))، وإذا شئت الدليل القرآني على ما يشعر به المسلم من سكينه وسعادة حينما يتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو أو بآخر، فهو قوله تعالى: ﴿حُدِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾.

في الإسلام: لماذا يُعد الحج تجربة تحول روعي؟